مجلة تدبر

مجلة دورية علمية محكمة تعنى بتحكيم ونشر البحوث والدراسات المتصلة بمجالات تدبر القرآن الكريم، وتصدر مرتين في السنة

العدد العاشر - السنة الخامسة. رجب ١٤٤٢هـ / فبراير ٢٠٢١م

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]

موضوعات العدد:

- تدبر القرآن الكريم وآثاره
  محمد الأمين أمير — د. جمال أحمد بشير بادي
- مظاهر نعمة الطريق في ضوء سورة النحل
  د. محمود بن عبد الجليل روزن
- الجوانب البلاغية في سورة الفاتحة «دراسة تحليلية»
  د. محمد وسيم خان
- آيات الأخذ بالبأساء والضراء في سورة الأنعام (٤٢ - ٤٥) «تفسير واهتداء»
  د. مسعد بن مساعد الحسيني
- الإشارات لما في مقدمة الشاطبية من الآداب والتوجيهات
  د. طارق بن سعيد أبو ربعه السهلي الحربي
- تقرير رسالة علمية بعنوان:
  تدبر القرآن الكريم عند الإمام ابن القيم رحمه الله «دراسة تأصيلية»
  للباحث: عبد العزيز بن محسن الوثلان
- تقرير عن مجلة تدبر خمس سنوات (١٤٣٨ : ١٤٤٢) (٢٠١٦ : ٢٠٢١)
- تقرير عن ملتقى التفسير الأول بدولة الكويت «مثاني» التابع لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

مجلة تدبر

آيات الأخذ بالبأساء والضراء في سورة الأنعام (٤٢-٤٥)

«تفسير واهتداء»

د. مسعد بن مساعد الحسيني

الأستاذ المشارك بقسم التفسير وعلوم القرآن بكلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

قدم للنشر في: ١٤٤١/٩/١٦
قبل للنشر في: ١٤٤١/١٠/٢١
نشر في: ١٤٤٢/٧/١

- نال شهادة الماجستير من قسم التفسير وعلوم القرآن بكلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عام ١٤١٠هـ بأطروحته: «منهج شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في التفسير مع تحقيق جزء من تفسيره».
- كما نال شهادة الدكتوراه من قسم التفسير وعلوم القرآن بكلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عام ١٤١٧هـ بأطروحته: «الإيضاح في التفسير لقوام السنة الأصفهاني تحقيق ودراسة من سورة الفاتحة إلىٰ نهاية سورة المائدة».

من أعماله المنشورة:

١- (التبيان فيما جاء في الكتاب العزيز من حب الأوطان)

٢- (العدل والإحسان مع المخالف في ضوء القرآن)

البريد الشبكي: mosed.m.h@hotmail.com

مجلة تدبر

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

يعالج البحث -من خلال التعرض لآياتٍ في سورة الأنعام- قضيةً، هي غاية في الأهمية، وهي أخذ العباد بالبأساء -وهي الحاجة والفقر- والضراء -وهي الأمراض والأسقام- بعد إرسال الرسل، وإعراض المرسل إليهم، لعلهم أن يتضرعوا لربهم، ويستكينوا له، ويعودوا إليه، فيرفع بأسَهم، ويُسْبغ الفضل عليهم، والخيرات لديهم، إلا أنهم تمادوا في غيِّهم وضلالهم، ولم ينتفعوا بمواعظ الله وآياته؛ فاستدرجهم الله بالإنعام، ففتح لهم ما كان مغلقًا عليهم من النعم التي يريدون، حتىٰ أشروا وبطروا، فحقت عليهم كلمة العذاب، فأُهلِكوا فجأة جميعهم.

ويهدف البحث إلىٰ التدبر في هذه الآيات التي تحكي حال قومٍ كانوا بهذه المثابة، وما نزل بهم من العذاب الأليم.

وحيث إن هذا من سنن الله الجارية، ففي ضمن ذلك الحذر والتحذير من سلوك حال المستدرجين المهلكين؛ لئلَّا يصيبنا ما أصابهم.

ومنهج البحث في معالجة هذا الموضوع ببيان معنىٰ تلك الآيات، ومقاصدها، وموضع العظة فيها، من خلال استعراض كلام المفسرين، حسبما جاء في المصادر والمراجع الأصيلة؛ لما في ذلك لنا من العظة والعبرة، ولنحذر سلوك سبيلهم؛ لئلَّا يصيبنا مثل ما أصابهم.

◆ **الكلمات الدالة (المفتاحية)** أمم، البأساء، الضراء، التضرع، نسوا، مبلسون.

والحمد لله رب العالمين

lah's warnings and signs. So He decoyed them by endowing them with lavish material possessions and all desirable conveniences until they behaved exultantly, ungratefully and arrogantly. Thereupon those rebellious peoples deserved divine punishment and were unexpectedly annihilated.

The aim of the research is to reflect on these verses which cast light on the state of people who behaved such a way and brought down upon themselves exemplary punishment. Since this is a normative precedent established by Allah, we must beware of the conduct and the example of those wrongdoers who were tempted and doomed to destruction so that we can protect ourselves against their fates. The approach used in this research was expanding on the relevant verses, their objectives, the lessons to be learned from them by reviewing the statements and accounts of the Muslim exegetes according to the original reliable sources and references. All of this is intended to derive parables and serious lessons to exercise caution and avoid the same fate.

Keywords: Nationsdis, Tress, Ailment, Humility, Forgot, Deep, Sorrow

The Quranic Verses Referring to the Affliction with Distress and Ailment in the Surah Al An'âm: (42-45) Commentary and Spiritual Conclusions

Prepared by:

Dr. Musad bin Massad Al-Husseini(1)

Associate Professor at the Department of Interpretation and Qur'anic Sciences, the College of the Noble Qur'an and Islamic Studies, the Islamic University of Medina.

E-mail: mosed.m.h@hotmail.com

Abstract

Through the verses in the Surah Al An'âm, the research addresses an issue of paramount importance, which is afflicting humans with distress that connotes want, poverty and ailment after sending the prophets and the resistance they received from their relevant peoples so that they can plead with and turn to their Lord with submission and humility to eliminate them from their suffering and confer upon them His bestowals and boons. However, those peoples persisted with their obstinacy and deviations without trying to learn from Al-

(1) He obtained a Master's Degree from the Department of Tafseer and Qur'an Sciences at the College of the Noble Qur'an and Islamic Studies at the Islamic University of Madinah in 1410 AH with his thesis entitled: "The Approach of the Sheikh of Islam Muhammad bin Abd al-Wahhab in Tafseer" with the investigation of part of his Tafseer." He also received a PhD Degree from the Department of Tafseer and Qur'an Sciences at the College of the Noble Qur'an and Islamic Studies at the Islamic University of Madinah in the year 1417 AH with his thesis entitled: "Al-Idhah fi Art-Tafseer (Clarification on the Tafseer) by Qiyam As-Sunnah Al-Asfahani, an investigation and study from the Surat Al-Faatihah to the end of Surat Al-Maa'idah."

مجلة تدبر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام علىٰ نبيِّه الأمين، ومَن سار علىٰ نهجه، واستنَّ بسُنته إلىٰ يوم الدين.

أما بعد:

فإن كتاب الله تعالىٰ قد اشتمل علىٰ أعظم المواعظ، وأنفع القصص التي تضمنت أبلغ العِبر، وأنفع ما يكون لأهل العقل والنظر، ومن ذلك سُنة الله تعالىٰ في الإنذار والإعذار، وسُنته في تصريف الأقدار، لعلَّ ذلك أن يُحْدِث الادِّكار والاعتبار، والتوبة والاستغفار، وكل ذلك من آثار رحمة الرحيم سبحانه، وحكمة الحكيم.

والعباد بأمسِّ الحاجة إلىٰ أن يَعُوا هذه المعاني، ويفيدوا من هذه العِبر والعِظات.

ومن الآيات العظيمة التي تتحدث عن هذا الموضوع: الآيات من سورة الأنعام (٤٢-٤٥)، فقد رأيت فيها مادة علمية، ووعظية، وتربوية؛ فأحببت أن أتعرَّض لدراستها من خلال هذا البحث المتواضع، وعنونت له بـ «**آيات الأخذ بالبأساء والضراء في سورة الأنعام، تفسير واهتداء**».

وقد قسمت البحث إلىٰ: مقدمة، وتمهيد، وتسعة مباحث، وخاتمة:

أما المقدمة، فتشتمل علىٰ ما يلي:

١- خطة الموضوع.
٢- حدود الموضوع.
٣- أهمية الموضوع.
٤- أسباب اختيار الموضوع.

٥- الدراسات السابقة.

وأما التمهيد، فيشتمل علىٰ ما يلي:

١- أهمية دراسة السنن الكونية.

وأما المباحث، فتشتمل علىٰ ما يلي:

المبحث الأول: **مناسبة الآية لما قبلها، وما بعدها.**

المبحث الثاني: **تفسير الآيات.**

ويشتمل علىٰ ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تفسير المفردات.

المطلب الثاني: النكت البلاغية، والمُلَح التفسيرية.

المطلب الثالث: التفسير الإجمالي.

المبحث الثالث: **الاعتبار طريق الاهتداء.**

المبحث الرابع: **الإعذار للعباد قبل العقوبات.**

المبحث الخامس: **تصريف الأحوال رحمة من الكبير المتعال.**

المبحث السادس: **أحوال العباد مع البلاء.**

المبحث السابع: **صلاح الحال الظاهر دون توبة استدراج.**

المبحث الثامن: **الهلاك بعد الموعظة والنذارة لا مثنوية له.**

المبحث التاسع: **الله المحمود علىٰ كل حال.**

الخاتمة.

الفهارس العامة.

حدود الموضوع:

حدود الموضوع الذي أريد بحثه: الآيات المتعلقة بالأخذ بالبأساء والضراء في سورة الأنعام من الآية (٤٢) إلىٰ الآية (٤٥)، ودراستها دراسة تفسيرية وَفق الخطة المرسومة، مهتديًا في ذلك بما ذكره علماء التفسير حول هذه الآية، مع ما ييسِّره الله من ترتيب وتنسيق، وما يفتح به من استنباطٍ للدروس والعِبر من هذه الآيات، وبالله التوفيق.

أهمية الموضوع:

لهذا الموضوع أهمية بالغة من جوانب عديدة، منها:

١- أنه يعالج موضوعًا لله فيه سُنة جارية في خَلقه؛ مما يوقظ الضمائر، ويُحيي القلوب، ويُلفت الأنظار، فإن سُنن الله لا تتغير، ولا تتبدَّل، وهي جارية علىٰ خَلقه.

٢- أنه يشير إلىٰ القصص القرآني المتميز بعنايته بجانب العِظة والعِبرة، ويلفت النظر إليه لمعرفة ما يدلُّ عليه من سُنن الله الجارية.

٣- الحاجة الماسَّة إلىٰ الدراسات العلمية التي تمسُّ حياة الناس، وتلامس قلوبَهم.

أسباب اختيار الموضوع:

تتلخَّص أسباب اختيار الموضوع فيما يلي:

١- ما تقدم ذكره في أهمية الموضوع.

٢- ما يقتضيه حال العالَـم اليوم الذي استشرىٰ فيه الفساد إلا ما رحم الله، من وجوب النظر، والتأمل، والاعتبار بسُنن الله الجارية، واستقراء التاريخ الإنساني، والقصص القرآني.

٣- قلة الدراسات التي تُعنىٰ بهذا الجانب، وتعالج واقع الناس اليوم، وتلامس حاجاتهم، مهتدية بكتاب ربهم.

٤- الرغبة في المساهمة في إثراء المكتبة الإسلامية في جانب من جوانب الاهتداء بالقرآن الكريم من خلال التدبُّر في الآيات التي أشارت إلىٰ سُنن ربانية، الحاجة لدراستها ماسَّة.

الدراسات السابقة:

الدراسات المتعلِّقة بالسُّنن الإلهية متنوِّعة في موضوعاتها، ومجالات بحثها.

وقد نجد في بعض مؤلَّفات العلماء السابقين ما يمكن إدراجه تحت: «السُّنن الإلهية» بصفة عامَّة، ومن ذلك:

١- «العقوبات الإلهية للأفراد والجماعات والأمم»، لابن أبي الدنيا (ت: ٢٨١هـ)، حيث بيَّن فيه أسباب العقوبات الإلهية وأنواعها، وآثار المعاصي علىٰ البَشر، وما تحت أيديهم، مع تطبيق ذلك علىٰ الأمم والأقوام السابقة.

وقد طُبع طبعته الأولىٰ بتحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، عام ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٢- «الذُّنوب وأثرها السيِّئ علىٰ الأفراد والمجتمعات والشعوب»، لأبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)، وقد طُبع طبعته الأولىٰ بتحقيق ودراسة وتخريج: إبراهيم بن عبد الله الحازمي، بدار الشريف، الرياض، السعودية، عام ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٣- «السُّنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم.. أصول وضوابط»، للدكتور: مجدي محمد محمد عاشور، وقد طُبع بدار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، عام ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

٤- «السُّنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية»، للدكتور: عبد الكريم زيدان، وقد طُبع بمؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، عام ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٥- «السُّنن الإلهية في السيرة النبوية» للدكتور: رشيد كهوس، وقد طُبع بدار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، عام ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م.

٦- «مفهوم السُّنن الإلهية في القرآن الكريم وعَلاقته بمباحث العقيدة» للأستاذ: خالد محمد أبو الفتوح، علىٰ الشبكة العنكبوتية http://almoslim.net/elmy/290530

٧- «السُّنن الإلهية في القرآن الكريم، ودورها في استشراف المستقبل»، عماد خصاونة - خضر قزق، علىٰ الشبكة العنكبوتية https://andalusiat.com

٨- «مفهوم السُّنن الربَّانية في ضوء القرآن الكريم»، للأستاذ الدكتور: رمضان خميس زكي، علىٰ الشبكة العنكبوتية: www.riyadhalelm.com

أهمية دراسة السنن الإلهية:

السُّنن الإلهية «هي ما اطَّرد مِن فِعل الله في معاملة الأمم والأفراد، بعلمٍ وعدلٍ وحكمةٍ، بناءً علىٰ أفعالهم، وسلوكهم، وموقفهم من شرع الله، وأثر ذلك في الدنيا والآخرة»(١).

ولدراسة السُّنن الإلهية أهمية بالغة لأمورٍ، منها:

١- أنَّ فَهم سُنن الله في خَلقه يُعين المسلم علىٰ فَهم معاني أسماء الله الحسنىٰ، وصفاته العُلىٰ، وأفعاله الجميلة، تأمل قول الله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنفال: ٥٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ

(١) انظر: «السنن الإلهية في القرآن الكريم، ودورها في استشراف المستقبل»، عماد خصاونة (ص٦).

مَوْتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ [الروم: ٥٠].

٢- معرفة سُنن الله تُعين علىٰ فَهم التاريخ، وتحليل الأحداث؛ فالظُّلم سببٌ للهلاك، والعدل سببٌ للبقاء والنَّماء، والاجتماع سبب للقوَّة والعِزَّة، والتفرُّق سبب للضَّعف والهلاك... وهكذا.

٣- معرفة السُّنن، والسَّيْر علىٰ هداها سبب للنصر، والعزِّ، والتمكين، والفلاح، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٞ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

٤- في معرفة السُّنن ما يرسِّخ في المؤمنين تعظيم الله وحبَّه، فأحكامه عادلة، وأفعاله حكيمة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

المبحث الأول:

مناسبة الآيات لما قبلها، وما بعدها

سورة الأنعام من عجائب السور؛ فقد اشتملت علىٰ تقرير التوحيد بأساليبَ شتَّىٰ، كما اشتملت علىٰ محاجَّة المشركين، وبيان ضلالاتهم وجهالاتهم، وحالهم المؤسفة المحزنة مع رسولٍ رؤوفٍ رحيمٍ، فهو يدعوهم للتوحيد، وهم في جهالات وضلالات يسمو عنها العقلاء، ويجمعون مع هذا تكذيبًا واستهزاءً؛ لذا قال تعالىٰ: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

فجاءت آيات هذه السورة تُلفت نظر المشركين إلىٰ عاقبة المكذِّبين قبلهم، وكيف أدَّىٰ بهم كفرُهم وعنادهم إلىٰ هلاكهم وخسرانهم، وتلك آثارهم شاهدة عليهم.

قال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

وقال بعد ذلك: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١].

فجاءت هذه الآية في هذا السياق للوعظ بحال قومٍ لم ينتفعوا بمواعظ الله؛ فأخذهم أَخْذ عزيزٍ مقتدرٍ، ففي ذلك عِظة وعِبرة.

ففي الآيات موضع البحث يقول تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٤٥].

ففي هذه الآيات تسليةٌ للنبي ﷺ أنه ليس أول من كُذِّب، ولا قومه أول من كذبوا؛ لذا قال تعالىٰ قبل هذه الآيات: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

فلا يحزنك قولهم، ولا حالهم، فقد أعذر الله إليهم، ومن يضلل الله فلا هادي له(١).

وقال القرطبي: «وهذه الآية متصلة بما قبلها اتصال الحال بحالٍ قريبةٍ منها، وذلك أن هؤلاء سلكوا في مخالفة نبيِّهم مسلك مَن كان قبلهم في مخالفة أنبيائهم، فكانوا بعرض أن ينزل بهم من البلاء ما نزل بمن كان قبلهم»(٢).

«ولما قدّم التنبيه بإتيان مُطلق العذاب في مُطلق الأحوال بقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام:٤٠].

وكان الإتيان بالكاف، ثَمَّ مشيرًا -مع إفادة التأكيد- إلىٰ أن ثَمَّ نوع مُهْلة، وأتبعه أن أَخْذ الأمم كان بغتةً، أعقبه بالتنبيه بعذاب خاص، تصورُ شناعته يهد الأركان، ويقطع الكبود، ويملأ الجنان، فإنه لا أشنع حالًا من أصمٍّ أعمىٰ مجنون، فقال مشيرًا -بإسقاط كاف الخطاب مع التعبير بالأخذ الذي عهد أنه للبغت

---

(١) انظر: «البرهان في تناسب سور القرآن»، للغرناطي (١: ٢١٠)، و«روح المعاني»، للألوسي (٤: ١٤٣).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن»، للقرطبي (٦: ٤٢٤).

بالسطوة والقهر- إلىٰ غاية التحذير من سرعة الأخذ، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام:٤٦].

فكانت حقيقة المقترن بالكاف: هل رأيتم أنفسكم، وهذا: هل رأيتم مطلق رؤية لما يدل عليه من الإيماء إلىٰ طلب الإسراع بالجواب خوف المفاجأة بالعذاب»(١).

(١) انظر: «نظم الدرر»، للبقاعي (٧: ١١٧، ١١٨).

المبحث الثاني:

تفسير الآيات، ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تفسير المفردات:

﴿أُمَمٍ﴾، أي: جماعات وقرون[(١)] وأقوام كُثُر.

﴿فَأَخَذْنَاهُم﴾، أي: أصبناهم إصابة تمكُّن، ليرجعوا ويرعووا، وفي ذلك معنى القهر، وقد ذكر متعلِّق الأخذ هنا؛ لأنه أَخْذ بشيءٍ خاص بخلاف الآتي بُعَيد هذا[(٢)].

«**البأساء**»: شدَّة الفَقر، والضِّيق في المعيشة.

وهذا قول ابن مسعود رضي الله عنه، وقتادة، والضَّحاك، وغير واحد[(٣)].

ويشهد له قوله تعالىٰ: ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ [الحج:٢٨].

«**الضراء**»: الأسقام والعِلل العارضة في الأجسام.

وهو أيضًا قول ابن مسعودٍ رضي الله عنه، وقتادة، والضَّحاك، وغير واحد.

ويشهد له قوله تعالىٰ مخبراً عن مقالة أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣].

﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾: يدعون الله بِذُلٍّ واستكانةٍ وإنابةٍ، من الضراعة وهي الذّلة، يقال:

---

(١) «جامع البيان»، للطبري (١: ٣٥٤).

(٢) انظر: «التحرير والتنوير»، للطاهر ابن عاشور (٢: ٢٧١)، (٧: ٢٢٧).

(٣) المرجع السابق (٣: ٣٥٠).

ضرع فهو ضارع[1].

﴿فَلَوْلَآ﴾: هلَّا؛ وهي التي تلي الفعل بمعنىٰ التحضيض، وهذا عتاب علىٰ ترك الدعاء، وإخبار عنهم أنهم لم يتضرعوا حين نزول العذاب[2].

﴿بَأْسُنَا﴾: عذابنا[3]، ومنه قوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر:٢٩].

﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، أي: صَلُبت وغلظت، وهي عبارة عن الكفر والإصرار علىٰ المعصية[4] يشهد له ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤].

﴿نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾: تركوا ما وُعِظوا به، وأعرضوا عنه، وعاملوه معاملة المنسيِّ. وهذا قول ابن عباس، وغير واحد[5].

﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾: فتحنا عليهم كلَّ شيء كان مغلقًا عليهم، فبدَّلنا مكان البأساء الرَّخاء والسَّعة في العيش، ومكان الضراء الصِّحة والسلامة في الأبدان والأجسام؛ استدراجًا منَّا لهم[6].

﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾، أي: فجأة وهم في غرورهم وغفلتهم وتماديهم، ومعنىٰ الأخذ هنا: الإهلاك، ولذلك لم يذكر له متعلق كما ذكر في قوله آنفًا: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾؛ للدلالة علىٰ أنه أَخْذٌ لا هوادة فيه[7].

(١) «جامع البيان»، للطبري (١١: ٣٥٥)، و«الجامع لأحكام القرآن»، للقرطبي (٦: ٤٢٥).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن»، للقرطبي (٦: ٤٢٥).

(٣) «جامع البيان»، للطبري (١١: ٣٥٦).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن»، للقرطبي (٦: ٤٢٥).

(٥) «الجامع لأحكام القرآن»، للقرطبي (٦: ٤٢٦)، «جامع البيان»، للطبري (١١: ٣٥٧).

(٦) «جامع البيان»، للطبري (١١: ٣٥٨)، وعزاه إلىٰ مجاهد وقتادة وغير واحد.

(٧) «التحرير والتنوير»، للطاهر ابن عاشور (٧: ٢٣١).

ويشبه هذا قوله تعالىٰ -مبينًا سرعة الغِيَر حينما يغتر العباد بحالهم، وينسون ربهم-: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

﴿مُّبْلِسُونَ﴾: منقطعون آيسون من كل خيرٍ.

قال القرطبي: «المبلس: الباهت الحزين، الآيس من الخير، الذي لا يحير جوابًا لشدة ما نزل به من سوء الحال، ومن ذلك اشتق اسم إبليس»(١).

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾، أي: استؤصلوا عن آخرهم(٢).

ولا يزال في الشيء بقية حتىٰ يقطع دابره، أي: آخره، فذلك الـمَحْقُ، والهلاك العام.

المطلب الثاني: النكت، والأسرار البلاغية، والملح التفسيرية في الآيات:

﴿وَلَقَدْ﴾: اللام موطئة للقسم، و«قد» للتحقيق، وهذا تأكيد للخبر بمؤكدين، وهو دليل رحمة الله بعباده، فمع أنه لا تضره معصية العاصين، كما أنه لا تنفعه طاعة المطيعين، ولا أصدق منه قيلًا -دون تأكيدٍ- إلا أنه يؤكد الكلام بمؤكدات؛ ليبلغ ذلك مبلغًا في نفوس السامعين لعلهم أن ينتفعوا لمصحلتهم هم.

قوله تعالىٰ: ﴿أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم﴾ في الكلام حذف يدلُّ عليه الظاهر، والتقدير: «أرسلنا إلىٰ أمم من قبلك رسلًا فكذبوا»(٣)، وذلك لأنَّ الأخذ

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن»، للقرطبي (٦: ٤٢٧).

(٢) انظر: «جامع البيان»، للطبري (١١: ٣٦٣) و«المحرر الوجيز»، لابن عطية (٢: ٢٩٢).

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن»، للقرطبي (٦: ٤٢٤).

مترتِّب علىٰ التكذيب، لا علىٰ إرسال الرسل، وفي تنكير «أمم» دلالة علىٰ كَثرة هذا، وهو أبلغ في التسلية بحال أقوامٍ كُثر أرسل الله إليهم رسلًا فكذبوا(١).

ولما كان أخذهم بالبأساء والضراء مقارنًا لزمن وجود رسلهم بين ظهرانيهم، جاء العطف بالفاء؛ ليدلَّ أن ذلك بمرأىٰ من رسلهم، وقبل انقراضهم؛ ليكون إشارةً إلىٰ تأييد الله رسله، ونصرهم في حياتهم(٢).

قوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾، «لعل» هنا للترجي، وهذا دليل رحمة الله بهم؛ حيث قدم لهم عذابًا هينًا يمكن رفعه؛ ليوقظهم قبل العذاب الأكبر الذي لا يرفع كما قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١].

وفيه إنذارٌ لقريش؛ لئلَّا يصيبهم مثل ما أصاب من قبلهم من المكذبين(٣).

قوله تعالىٰ: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا﴾ «لولا» هنا التحضيضية، ولكن لما دخلت علىٰ جملة فعلية ماضية، دلَّت علىٰ التوبيخ(٤).

وجاء بـ «لولا» ليفيد أنه لم يكن لهم عُذر في تَرْك التضرع إلا عنادهم، وقسوة قلوبهم، وإعجابهم بأعمالهم التي زيَّنها الشيطان(٥).

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ الاستدراك يدلُّ علىٰ أن التذكير لم يُجْدِهم شيئًا، بل زادوا إعراضًا حتىٰ قست قلوبهم.

---

(١) انظر: «مفاتيح الغيب»، للرازي (١٢: ٥٣٣) و«المحرر الوجيز»، لابن عطية (٢: ٢٩١).

(٢) «التحرير والتنوير»، للطاهر ابن عاشور (٧: ٢٢٧).

(٣) انظر: «التحرير والتنوير»، للطاهر ابن عاشور (٧: ٢٢٨).

(٤) المرجع السابق بصحيفته.

(٥) «الكشاف»، للزمخشري (٢: ٢٣).

وقوله: ﴿قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ يدلُّ على شدَّة إعراضهم؛ حيث صورت بصورة محسوسة، وهي القسوة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ﴾ [البقرة: ٧٤].

قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ يدلُّ على قُبح ما أتوا، وإنما زيَّنه الشيطان -عدو الإنسان- لهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ يدلُّ على إعراضهم عما ذُكِّروا به، إعراضَ مَن لم يقم بقلبه شيء.

كما يدلُّ قوله: ﴿مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ أنَّ الإعراض متعمَّد، والحجة قد قامت، فعرضوا أنفسهم للعقوبة.

قوله تعالى: ﴿فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ «كل» هنا من العام الذي أريد به الخصوص، أي: كلّ شيء كان مغلقًا عليهم، وهم يبتغونه(١).

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ دليلٌ أنَّ الأخذ لهم إنما كان في وقت نشوتهم وغرورهم، ذلك أنكى لهم، وأمكن لاستدراجهم.

قوله: ﴿أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ﴾ دليل على شدَّة العقوبة، وأنها لم تأتِ بالتدرج، وإنما جاءت فجأةً، وهذا كما تقدَّم أنكى لهم أيضًا.

قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ دليل على استئصالهم؛ لأنَّ الشيء إذا قُطع دابره، لم يبقَ له بقيَّة، وذلك عذاب الاستئصال.

ولما كان من عادة الغالب من أهل الدنيا أن يفوته آخر الجيوش وشُذَّاذهم، لملل أصحابه من الطلب، وضجرهم من النَّصَب والتعب، وقصورهم عن الإحاطة

(١) انظر: «التحرير والتنوير»، للطاهر ابن عاشور (٧: ٢٣٠).

بجميع الأرب، أخبر تعالىٰ أنَّ أَخْذه علىٰ غير ذلك، وأن نَيْله للآخر كنَيْله للأول علىٰ حدٍّ سواء(١).

وفي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وضعٌ للظاهر موضع الضمير، والغرض منه بيان سبب أخذهم، وهو ما في صلة الموصول: «ظلمهم».

قوله: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دليل علىٰ أنَّ أخْذَ الظالمين مما يحمد عليه الله؛ إذ هو من أجلِّ النِّعم، وأجزل القِسَم؛ لأنه متمشٍّ مع الحكمة الإلهية، والعدل الرباني، والوفاء بوعده لرسله(٢). ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]، فالحمد لله رب العالمين.

المطلب الثالث: المعنى الإجمالي للآيات:

يخبر تعالىٰ نبيَّه ﷺ خبرًا محققًا، مؤكدًا باليمين، مسليًا لنبيِّه عن تكذيب المكذبين، أنه أرسل إلىٰ أمم غابرة رسلًا كُثُر، فدعوهم إلىٰ ربهم، فأعرضوا، فوعظهم ربُّهم بابتلائهم بأنواع البلايا؛ بشدةٍ في عيشهم، ومرضٍ في أجسادهم؛ لعلهم أن ينكسروا، فيرجعوا لربهم، ويخبتوا إليه، ويَدْعوه بذِلَّةٍ واستكانةٍ.

ولكنهم لتمكُّن الشرّ من نفوسهم، تمادَوا في غيِّهم وضلالهم، وأعرضوا عن ربهم الرحمن، واتبعوا عدوهم الشيطان الذي حسَّن لهم الباطل، فالقلوب فاسدة، والمقاصد فاسدة، فأعرضوا عن الهُدىٰ، واتبعوا الهَوىٰ.

فلمَّا قامت عليهم الحُجة، وأعرضوا عمَّا ذُكِّروا به من آياتٍ بيناتٍ، وعِبَرٍ وعظاتٍ، وكانوا مستحقين للعذاب، استدرجهم فتح الله عليهم من أبواب الخيرات

(١) انظر: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور»، للبقاعي (٧: ١١٦).

(٢) انظر: «الكشاف»، للزمخشري (٢: ٢٤).

التي كانوا يؤمِّلون، وكانت مغلقةً عليهم، وهم في غيِّهم وضلالهم، وعدم استكانتهم، أو شكرهم، فلمَّا فرحوا فرحَ بَطَر وأَشَر، أخَذَهم الله وهم في نشوتهم وسرورهم مع عدم شكرهم -فجأةً- أَخْذ عزيز مقتدر، فلم يكن لهم وليٌّ يلتجؤون إليه، أو نصيرٌ يعتمدون عليه؛ إذ لم يتعرفوا إلىٰ الله في الرخاء ليعرفهم في الشدَّة، فأيسوا من كل خيرٍ، وانقطعوا من كل صلةٍ، فاستؤصلوا عن آخرهم؛ لظلمهم وبغيهم، وعنادهم، وهذا عدلٌ من القوي العزيز الذي لا يُهْلِك إلا بعد أن يقيم الحُجة، ويعذر من خلقه، فله الحمد والمنَّة علىٰ أفعاله الكريمة، وعزته، وجلاله، فهو الرب، الخالق، المالك، المدبر.

والحمد لله رب العالمين

المبحث الثالث:

الاعتبار طريق الهداية

جاءت هذه الآيات لحِكَمٍ وغاياتٍ عظيمةٍ كما تقدَّم؛ منها: تسلية النبي ﷺ عن تكذيب من كذَّبه من قومه، وأنه ليس بدعًا من الرسل؛ فقد كُذِّب قبله رسلٌ، فما ضرَّهم؛ إذ أدَّوا رسالة ربهم، بل نصرهم الله علىٰ أعدائهم، كما قال في مثل هذه الآيات: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأنعام:١٠].

وقال: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأنعام:٣٤].

والمراد بكلمات الله -والله أعلم- كلماته بنصر رسله وأنبيائه، كما قال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، ومما يدل علىٰ هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧].

وقال سبحانه: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [فاطر:٤].

لذا، قال تعالىٰ لنبيِّه ﷺ: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف:٣٥].

ومن الحِكَمِ لمجيء هذه الآيات أيضًا: تحذير الـمُعْرضين والمكذِّبين عن

إعراضهم وضلالهم، وتذكيرهم بحال سابقة مماثلة لحالهم؛ ليعتبروا بها، فيدعوا -فيتركوا- الإعراض، ويُقْبلوا، وهذا كله يندرج تحت باب جليل القَدر، عظيم النَّفع، وهو الاعتبار بحال من مَضَوا؛ سواء من رُسل الله وما واجهوا، أو الأمم وما استجابوا أو عاندوا، وعاقبة كلٍّ؛ ليكون في ذلك عِبرة، فيُقتدَىٰ بالأخيار، ويُتَّقىٰ سبيل الأشرار، ذلك أنَّ سُنن الله في عباده واحدة ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣].

لذا، شغل القصص القرآني حيِّزًا عظيمًا من كتاب الله تعالىٰ، وكله يركِّز علىٰ موضع العِظة والعِبرة ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ [يوسف:١١١].

وقال سبحانه: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

يقول الطبري رحمه الله: «فاقصص يا محمد هذا القصص الذي اقتصصتُه عليك من نبأ الذي آتيناه آياتنا، وأخبارَ الأمم التي أخبرتُك أخبارهم في هذه السورة، واقتصَصْت عليك نبأهم، ونبأ أشباههم، وما حلَّ بهم من عقوبتنا، ونزل بهم حين كذَّبوا رسلَنا من نقمتنا علىٰ قومك من قريشٍ، ومَنْ قِبلَك من يهود بني إسرائيل؛ ليتفكَّروا في ذلك، فيعتبروا ويُنيبوا إلىٰ طاعتنا؛ لئلَّا يحلَّ بهم مثل الذي حلَّ بمن قبلهم من النِّقم والـمَثُلات، ويتدبَّره اليهود من بني إسرائيل، فيعلموا حقيقةَ أمرك، وصحَّة نبوَّتك؛ إذ كان نبأ ﴿ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ [الأعراف:١٧٥]، من خفيِّ علومهم، ومكنون أخبارهم، لا يعلمه إلا أحبارُهم، ومن قرأ الكُتب ودرَسَها منهم. وفي علمك بذلك وأنت أُمِّيٌّ لا تكتب، ولا تقرأ، ولا تدرس الكتب، ولم تجالس أهل العلم- الحُجَّةُ البينةُ لك عليهم بأنك لله رسول، وأنك لم تعلم ما علِمت من ذلك، وحالُك الحال التي أنت بها إلا بوحيٍ من السماء»(١).

(١) «جامع البيان»، للطبري (١٣: ٢٧٤).

وسُنة الله في خَلقه جارية، وعدله في خَلقه نافذ ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦].

وأيضًا: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأنبياء:٤٨، ٤٩].

فلا غَرْو جاءت هذه الآيات العظيمة التي أنا بصدد تفسيرها؛ لتكون عِبرًا نافعات، وعظاتٍ موقظات لمن آمن بالآيات البيِّنات، فاهتدىٰ بها فيما ينفعه في الحياة، وبعد الممات.

المبحث الرابع:

الإعذار للعباد قبل العقوبات

من دلالات الآيات الكريمات: ما تقرر في غير ما موضعٍ أنَّ الله تبارك وتعالى حكمٌ، عدلٌ، ورؤوف، رحيم، لا يعذِّب إلا بعد إقامة الحُجة على العباد؛ لذا قال هنا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام:٤٥]، أي: رُسلًا مبشِّرين ومنذرين، فدعوا أقوامهم، وعلَّموهم، ووعظوهم، وحذَّروهم؛ فأعرضوا، ثم جاءت عقوبات لم تَخْلُ من لطفٍ؛ لأنها ليست عقوبات مطبقة، ولكنها عقوبات موقِظة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾.

قال تعالى في معرض تقرير هذا المعنى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥].

وقال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ

لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ
فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت:١٣-١٧].

ومعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾، أي: دَلَلْناهم علىٰ طريق الهدىٰ، وبينَّا لهم ما يأتون، وما يذرون، فهي هداية دلالةٍ وإرشادٍ، وإقامة الحُجة علىٰ العباد، ولكنهم أبوا وأعرضوا، فأنزل الله بهم بأسَه(١).

وتنزيلًا للآية التي بين أيدينا علىٰ واقع الناس اليوم؛ فقد بيَّن الله لهم المحجة، وأقام عليهم برسالة الإسلام، ونبي الإسلام الحُجةَ، وأبقىٰ فيهم كتابه بهداه وبيانه، محفوظًا بحفظه، دالًّا علىٰ دينه وشرعه، داعيًا إلىٰ توحيده، وعبادته، فمَن أراد السعادة، فهذا بابها مفتوح، وهذا سَناها يلوح، ومَن أعرض فقد أردىٰ نفسه، وأضرَّ بها عاجلًا وآجلًا، ولا يجني جانٍ إلا علىٰ نفسه، وله فيمن قبله عِبرة إن كان له قلبٌ أو ألقىٰ السمع وهو شهيد.

---

(١) انظر في هذا: «جامع البيان»، للطبري (٢١: ٤٤٨).

المبحث الخامس:

تصريف الأحوال رحمةً من الكبير المتعال

ذكر الله تعالىٰ في هذه الآيات أن الأمم لما كذَّبوا المرسلين، صرف الله لهم الأحوال، وغيَّر عليهم الحال؛ فأبدلهم بالغنىٰ فقرًا، وبالصِّحَّة سقمًا ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾.

وهذا في حقيقة الأمر رحمة من الله بعباده؛ ليُوقِظهم بموقظات عاجلة قبل أن تَفْجأهم عقوباتٌ دائمةٌ، لذا قال سبحانه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾،، وفي تضاعيف هذا من دلائل رحمة الله الرؤوف الرحيم بعباده ما لا يخفىٰ، فها هو يسوق عباده بخفيِّ ألطافه، ومحكم أقداره إلىٰ مصالحهم هم، من حيث لا يشعرون.

وهذا من ألطاف الله بعباده، وعظيم رحمته بهم، قال تعالىٰ: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف:١٦٨].

قال الطبري: «أي: واختبرناهم بالرَّخاء في العيش، والخفض في الدُّنيا والدَّعة، والسعَة في الرِّزق، وهي (الحسنات) التي ذكرها جلَّ ثناؤه، ويعني بـ(السيئات)، الشدَّة في العيش، والشظف فيه، والمصائب والرزايا في الأموال ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، يقول: ليرجعوا إلىٰ طاعة ربهم، ويُنيبوا إليها، ويتوبوا من معاصيه»[(١)].

لذا، فقد تنطوي المحنة علىٰ مِنحة، والبلية علىٰ العطيَّة ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:١٩].

(١) «جامع البيان»، للطبري (١٣: ٢٠٩).

ولهذه الحكمة قال تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

ومن أعظم حِكم الابتلاءات بالمصائب والشدائد: أن يعود العِباد إلىٰ ربهم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

وفي زماننا هذا أظهر الله لعباده آيةً دالةً علىٰ عظمتِهِ، وجلالِهِ، وقدرتِهِ، وتمام ملكه، وعلىٰ عَجز العباد، وضعفهم وقِلة حيلتهم مهما ادَّعوا وتكبَّروا، وبغوا، وتجبروا؛ حيث انتشر في البشرية وباءٌ يسمىٰ «كورونا» حيَّر الأطباء، وأعجز الأقوياء، وبسط نفوذه علىٰ سائر الأرجاء، فَشَلَّ أطراف الحياة، وعزل الناس في بيوتهم، وحال بينهم وبين مصالحهم حتىٰ تضررت معايشهم، فلم تُغْنِ عنهم قوتُهم المزعومة، ولا حضارتهم الموهومة من أمر الله شيئًا.

فأيقظ الله به قلوبًا، وعرف به خلائق لا يحصون قدرة ربهم، بل وردهم إلىٰ ربهم، مُطَّرحين بين يديه، مُفوِّضين الأمر إليه من مسلمٍ وكافرٍ طوعًا وكرهًا.

وتلك -والله- موقظات للعباد، وآياتٌ عظيمةٌ لهم؛ ليرجعوا إلىٰ ربهم، ويؤمنوا به، ويتبعوا نبي الرحمة ﷺ بشرعته العالمية، ورسالته المحمدية؛ لينالوا الحياة الطيبة، والسعادة الأبدية.

المبحث السادس:

أحوال العباد مع البلاء

من الدروس المستفادة من هذه الآيات الكريمة: أنَّ أحوال العباد مختلفة متنوعة عند نزول البلاء، وأَخْذهم بالبأساء والضراء بحسَب حياة القلوب أو موتها، وعلمها أو جهلها، وإقبالها أو إعراضها، وبصيرتها أو عماها؛ حيث قال تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾، وهذا دليل علىٰ أن الضراعة ممكنة، ومن تضرَّع عند البلاء، نفعه تضرُّعه، ورَدَّه للرخاء، وكم من عبد تضرَّع لربه فنجَّاه.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، وهذا دليل علىٰ حال سيئة لقلوب استحكمت غفلتها، وحقَّت كلمة العذاب عليها.

وعلىٰ هذا، فقلوب العباد عند نزول البلاء العاجل علىٰ نوعين:

النوع الأول:

قلوب حيَّة، أو لا تزال فيها حياة، تنظر بنور ربها، وتتفكر في آلائه، وتعلم ناموسه في الحياة، وأنه لا يظلم الناس شيئًا، وأن الناس أنفسهم يظلمون.

وتستيقن ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩]، أي: بسبب ذنوبك.

وتعي قول ربها: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

وقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠]،

فتقف مع نفسها وقفة صِدْق، ويراجع أصحابها أنفسهم، ويصححوا مسارهم، ويتوبوا من ذنوبهم، وينيبوا إلىٰ ربهم، فأولئك الذين عقلوا عن الله، وانتفعوا بمواعظ الله، فعادوا من البلايا بالعطايا، ومن المحن بالمنح، فأنجاهم الله بلطفه ورحمته، وأيقظ قلوبهم بموقظاته وإن أزعجتهم، إلا أنها نذير لما هو أشد وأنكىٰ وأبقىٰ.

وكلما كانت الضراعة أشد، والتوبة أنصح، كان أثرها -بإذن الله- أتم، ومَن صدق الله، صَدَقه الله، ورفع عنه العذاب، وقد ذكر الله لنا أنه رفع العذاب عن قوم يونس لما انعقد عليهم، وخرج نبيُّهم من بين ظهرانيهم فصَدَقوا التوبة، والضراعة، فرحمهم الله، ورفع عنهم العذاب.

قال ابن كثيرٍ رحمه الله: «والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرىٰ إلا قوم يونس، وهم أهل نينوىٰ، وما كان إيمانهم إلا خوفًا من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعدما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندها جأروا إلىٰ الله، واستغاثوا به، وتضرعوا لديه، واستكانوا، وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالىٰ أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيُّهم، فعندها رحمهم الله، وكشف عنهم العذاب، وأُخِّروا، كما قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨].

وقد دل علىٰ هذا الصنف من العباد في الآية قوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾، وذلك لأن الضراعة نافعتهم، ودافعة العذاب بفضل الله عنهم.

◆ النوع الثاني:

قوم استحكمت الغفلة من قلوبهم، وغلب الران عليها حتىٰ ختم عليها، فلا يزيدها البلاء إلا إعراضًا، وعتوًّا، وتمردًا، وتكبرًا، وهذا الصنف هو المشار إليه

بقوله: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

فهم بجهلٍ مركبٍ يجهلون، ويجهلون أنهم يجهلون؛ لأن قلوبهم قد ماتت، وبصائرهم قد عميت، فحالهم حال من وصفهم الله بقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وحال من وصفهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[الأعراف:١٧٩].

والإعراض بعد الإعذار هلكة.

وإعراض هؤلاء علىٰ أنواع:

* فإما أن ينسبوا ما نزل بهم إلىٰ المصلحين، وإصلاحهم تشاؤمًا وتطيرًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

وكما قال مخبراً عن قوم فرعون الذين كانوا هكذا مع آيات الله ومواعظه ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٣١].

* وإما أن يُعرضوا عن ربهم، ويتوجهوا لغيره ممن لا يضر ولا ينفع من أولياء وأدعياء، أو من أمورٍ ماديةٍ مع الإعراض عن الله تعالىٰ، وتلك لا تُجْدي بمجردها شيئًا. ولهؤلاء نصيب من حال قومهم، وصفهم الله بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ [الحج:١٢، ١٣].

فالموفَّق مَن يكون بأحسن المنازل؛ فإن أُعطِي شكر، وإن ابتُلِي صبر، وإن أذنب استغفر، فإذا ما ابتُلِي، اتَّهم نفسه، وأحسن الظن بربه، فعاد باللائمة علىٰ نفسه، وعاد عليها بسياط التأديب والتهذيب ليقومها علىٰ الطريق، وأحسن الظن بربه، فتاب إليه، وأناب إليه، ورجا خيرًا بيديه، وهو القائل في الحديث القدسي: «**أنا عند حُسن ظن عبدي بي**»[1].

(١) رواه البخاري في «صحيحه»، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: «ويحذركم الله نفسه» (٩: ١٢١) ح (٧٥٠٤)، ومسلم في «صحيحه»، كتاب الذكر والدعاء، باب الحث علىٰ ذكر الله تعالىٰ (٤: ٢٠٦١)، (٢٦٧٥).

المبحث السابع:

صلاح الحال الظاهر دون توبةٍ؛ استدراج

من الدروس المستفادة من هذه الآية: أن صلاح الحال الظاهر دون توبةٍ وإنابةٍ، وتصحيحٍ للمسار، ما هو إلا استدراج من العزيز الحكيم، وهو دليل علىٰ أنَّ أولئك القوم قد انعقد عذابهم، وحضرت هلكتهم، تأمَّل قول الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾.

فهؤلاء القوم قد أُخِذُوا بالبأساء والضراء، فلم يتضرعوا، بل تمادوا في غيِّهم؛ فحقَّت كلمة العذاب عليهم؛ إذ أعذر الله منهم، فأوَّل ذلك أن استدرجهم الله، وأمهلهم، ومدَّ لهم ليغتروا، فيأخذهم أَخْذ عزيز مقتدر، كما قال: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء:١٦].

قال الطبري: «أمرنا مترفيها بالطاعة، ففسقوا فيها بمعصيتهم الله، وخلافهم أمره»(١).

وقد جاء في كتاب الله تعالىٰ تقرير هذا المعنىٰ، وهو الاستدراج للمعرضين بعد إقامة الحجَّة عليهم ووعظهم، وذلك ليُؤخذوا علىٰ غِرة؛ ليكون ذلك أنكىٰ لهم، وأوجع وأشد.

فمن أظهر ذلك، هذه الآية، ففيها ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾.

(١) «جامع البيان»، للطبري (١٧: ٤٠٣).

روىٰ الإمام أحمد في «مسنده» أنَّ النبي ﷺ قال: «**إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي العَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَىٰ مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ**»، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾(١).

وقد تضافرت عبارات العلماء في تقرير هذا المعنىٰ، فقال الحسن البصري رحمه الله: «مَن وُسِّع عليه، فلم يَرَ أنه يُمْكَر به، فلا رأْيَ له، ومَن قُتِّر عليه فلم يَرَ أنه يُنْظَر له، فلا رأْيَ له»، ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾(٢).

وقال الحسن: «مُكِر بالقوم ورَبِّ الكعبةِ، أُعْطُوا حاجَتهم، ثُم أُخِذوا»(٣).

وقال قتادة: «بَغَتَ القومَ أَمْرُ الله، وما أَخَذَ اللهُ قومًا قَطُّ إلا عند سَلْوَتِهم وعِزَّتِهم ونِعْمَتِهم، فلا تَغتَرُّوا بالله، إنه لا يَغتَرُّ بالله إلا القومُ الفاسقونَ»(٤).

قال ابن القيم في «عُدة الصابرين»:

«قال سفيان في قوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٨٢]: «يُسبغ عليهم النِّعم، ويمنعهم الشكر». وقال غير سفيان: «كلما أحدثوا ذنبًا، أحدث لهم نِعمة»»(٥).

ومن الآيات الدالة علىٰ هذا المعنىٰ، وهي أشبه شيءٍ بآية البحث: قول الله

---

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (٣٥: ١٨٣).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥: ٢٣٢).

(٣) المرجع السابق بصحيفته.

(٤) المرجع السابق بصحيفته.

(٥) «عدة الصابرين»، لابن القيم (١: ١٣٢).

تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ۝٩٤ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤، ٩٥].

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقوله: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

قال القرطبي: «أي: أيحسبون يا محمد أنَّ الذي نعطيهم في الدنيا من المال والأولاد هو ثوابٌ لهم، إنما هو استدراجٌ وإملاءٌ، ليس إسراعًا في الخيرات»(١).

وقال السعدي: «أي: أيظنُّون أنَّ زيادتنا إيَّاهم بالأموال والأولاد دليل علىٰ أنهم من أهل الخير والسعادة، وأن لهم خير الدنيا والآخرة؟ وهذا مقدَّم لهم؟ ليس الأمر كذلك ﴿بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ إنما نملي لهم، ونُمهلهم، ونمدهم بالنِّعم ليزدادوا إثمًا، وليتوفر عقابهم في الآخرة، وليغتبطوا بما أوتوا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾»(٢).

فلينظر العاقل في حاله ليعرف هل هو من المنعمين أو المستدرجين، ويعتبر ذلك بحاله مع ربه، فإن كان ذاكرًا شاكرًا منيبًا، فهو من المنعمين، وإن كان بخلاف ذلك، فهو من المستدرجين؛ فليُفِق من غفلته، وليجدد توبته، ويَصْدق في أَوْبته، وبالله التوفيق.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن»، للقرطبي (١٢: ١٣١).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، للسعدي (١: ٥٥٣).

المبحث الثامن:

الهلاك بعد الموعظة والنذارة لا مثنوية له

لا يزال المرء في فسحةٍ من أمره، وسَعةٍ من وقته؛ ليتوب وينيب إلىٰ ربه حتىٰ ينعقد العذاب، ويعاينه، فحينئذٍ لا تنفعه التوبة؛ لأنَّ الغيب قد صار مشاهدًا، وزمن الإمهال قد انقضىٰ، وحل زمن العقوبة والهلاك، والإياس من النجاة، والإبلاس.

ودلالة هذا المعنىٰ لائحةٌ من خلال قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

فهذا هو الإبلاس، وهو الحسرة، والانقطاع، والإياس من الخير، لنزول عذاب لا مثنوية له، ولا إمهال معه، بل كانت العاقبة الاستئصال، الدال علىٰ الهلاك المستوعب ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾.

وما قُطع رأسه، بقي دابره، أما إذا قُطع دابره، فأيّ شيءٍ يبقىٰ منه؟! إنه الهلاك المسحت.

وقد دل علىٰ هذا المعنىٰ غير ما آيةٍ من كتاب الله تعالىٰ، منها قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ٨٤ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

قال ابن كثير رحمه الله: «﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾»، أي: عاينوا وقوع العذاب بهم، ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾، أي: وحدوا الله، وكفروا بالطاغوت، ولكن حيث لا تقال العثرات، ولا تنفع المعذرة، وهذا كما قال فرعون حين أدركه

الغرق: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠]، قال الله ﷻ: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٩١]، أي: فلم يقبل الله منه؛ لأنَّه قد استجاب لنبيِّه موسىٰ دعاءه عليه حين قال: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٨٨]، وهكذا هاهنا قال: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾، أي: هذا حكم الله في جميع مَن تاب عند معاينة العذاب: أنه لا يُقبل؛ ولهذا جاء في الحديث: «**إنَّ اللهَ يَقبَل توبةَ العبدِ ما لم يُغرغر**»[1]، أي: فإذا غرغر، وبلغت الروح الحنجرة، وعاين الملك، فلا توبة حينئذٍ، ولهذا قال: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[2].

وقال السعدي: «﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾، أي: عذابنا، أقرُّوا حيث لا ينفعهم الإقرار ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ من الأصنام والأوثان، وتبرَّأنا من كلِّ ما خالف الرُّسل، من علمٍ أو عملٍ.

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾، أي: في تلك الحال، وهذه ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ وعادته ﴿ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ أنَّ المكذِّبين حين ينزل بهم بأسُ الله وعقابه إذا آمنوا، كان إيمانهم غير صحيح، ولا منجيًا لهم من العذاب، وذلك لأنَّه إيمان ضرورة، قد اضطروا إليه، وإيمان مشاهدة، وإنما الإيمان النافع الذي ينجي صاحبه هو الإيمان الاختياري الذي يكون إيمانًا بالغيب، وذلك قبل وجود قرائن العذاب.

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾، أي: وقت الإهلاك، وإذاقة البأس ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ دينهم ودنياهم وأخراهم، ولا يكفي مجرد الخسارة في تلك الدار، بل لا بدَّ من خسران يشقي في العذاب الشديد، والخلود فيه، دائمًا أبدًا»[3].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (١٠: ٣٠٠)، وحسنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١: ٣٨٦).

(٢) «تفسير القرآن العظيم»، لابن كثير (٧: ١٦٠).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، للسعدي (١: ٧٤٣).

المبحث التاسع:

الله المحمود على كل حال

من الدروس المستفادة من هذه الآيات: تقرير الحقيقة الثابتة، أنَّ الله تعالىٰ هو المحمود علىٰ كلِّ حالٍ، فلما أخبر الله تعالىٰ بهلاك المعرضين بعد استدراجهم، ختم ذلك بقوله: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٤٥].

والحمدُ ثناءٌ علىٰ الله بما هو أهله، وهو أعمُّ من الشكر؛ حيث إنه يكون علىٰ المحاسن والإحسان، أي: علىٰ الصفات اللازمة المتعلقة بالله؛ كالعزَّة والعدل والعلو، والمتعدية وهي الواصلة آثارها إلىٰ العباد؛ كالخلق والرِّزق والإحياء والهداية، ونحو ذلك.

فالله تعالىٰ مستحقٌّ للحمد علىٰ كلِّ حال، وهو المحمود علىٰ إظهار عزَّته وعدله، كما أنه المحمود علىٰ نُصرة أنبيائه وأوليائه، وإهلاك أعدائه.

قال الطبري رحمه الله: «والثناء الكامل والشكر التام لله ربِّ العالمين علىٰ إنعامه علىٰ رسله، وأهل طاعته بإظهار حججهم علىٰ مَن خالفهم من أهل الكفر، وتحقيق عِدَاتِهم ما وَعَدوهم علىٰ كفرهم بالله، وتكذيبهم رسله مِن نِقم الله، وعاجل عذابه»(١).

وقال الرازي: «قوله: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فيه وجوهٌ:

الأول: معناه أنه تعالىٰ حمد نفسه علىٰ أنْ قَطع دابرهم، واستأصل شأفتهم؛

(١) «جامع البيان»، للطبري (١١: ٢٦٤).

لأنَّ ذلك كان جاريًا مجرىٰ النِّعمة العظيمة علىٰ أولئك الرُّسل في إزالة شرِّهم عن أولئك الأنبياء.

والثاني: أنه تعالىٰ لما علم قسوة قلوبهم، لزم أن يقال: إنه كلَّما ازدادت مُدة حياتهم، ازدادت أنواع كفرهم ومعاصيهم، فكانوا يستوجبون به مزيد العقاب والعذاب، فكان إفناؤهم وإماتتهم في تلك الحالة موجبًا ألَّا يصيروا مستوجبين لتلك الزيادات من العقاب، فكان ذلك جاريًا مجرىٰ الإنعام عليهم.

والثالث: أن يكون هذا الحمد والثناء إنما حصل علىٰ وجود إنعام الله عليهم في أنْ كلفهم، وأزال العُذر والعلة عنهم، ودبرهم بكل الوجوه الممكنة في التدبير الحسن، وذلك بأنْ أخَذهم أولًا بالبأساء والضراء، ثم نقلهم إلىٰ الآلاء والنَّعماء، وأمهلهم، وبعث الأنبياء والرسل إليهم، فلما لم يزدادوا إلا انهماكًا في الغيِّ والكفر، أفناهم الله، وطهَّر وجهَ الأرض من شرِّهم، فكان قوله: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ علىٰ تلك النِّعم الكثيرة المتقدمة»(١).

(١) «مفاتيح الغيب»، للرازي (١٢: ٥٣٥).

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات، والصلاة والسلام علىٰ مَن أرسله ربُّه بالآيات البينات، والحجج القاطعات، والعِبر الموقظات.

وبعد:

فبعد معالجة هذا الموضوع علىٰ عجالةٍ، أخلص للنتائج التالية:

١- أن قصص الأنبياء لها الآثار البالغة في الاعتبار، وهو مجالٌ رحبٌ للدروس والعبر، والوعظ بها.

٢- تصريف الأحوال رحمة من الله، لا ينتفع بها إلا الموفقون.

٣- الإعراض بعد الإنذار، وبعد ظهور العقوبات الموقظة العاجلة مُؤْذنٌ بالهلاك الذريع، والعذاب الأليم.

٤- سُنن الله الجارية في خَلقه لا تتبدَّل، والموفَّق مَن عرف ناموس الحياة، وسُنة الله في خَلقه، وتعامل مع ذلك بشرع الله تعالىٰ؛ ليكون من المفلحين.

٥- لا تزال الحاجة ماسَّة للكثير من الدراسات التي تستلهم الدروس والعبر من القصص القرآني.

مجلة تدبر

فهرس الآيات

م	الآيات	رقمها	السورة	الصفحة
١	﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ﴾	٧٤	البقرة	٢٢٥، ٢٢٨
٢	﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ﴾	١٥٥	البقرة	٢٣٧
٣	﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ﴾	١٧٨	آل عمران	٢٤٤
٤	﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾	١٩	النساء	٢٣٦
٥	﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾	٧٨	النساء	٢٤٠
٦	﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾	٧٩	النساء	٢٣٨
٧	﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ﴾	٦	الأنعام	٢٢١
٨	﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾	١٠	الأنعام	٢٣١
٩	﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾	١١	الأنعام	٢٢١
١٠	﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ﴾	٣٣	الأنعام	٢٢١
١١	﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾	٣٤	الأنعام	٢٢٢، ٢٣١

م	الآيات	رقمها	السورة	الصفحة
١٢	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾	٤٢	الأنعام	٢٢٢
١٣	﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾	٤٤	الأنعام	٢٤٢
١٤	﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾	٤٤	الأنعام	٢٤٥
١٥	﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾	٤٥	الأنعام	٢٤٥
١٦	﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا﴾	٩٤	الأعراف	٢٤٤
١٧	﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾	١٣١	الأعراف	٢٤٠
١٨	﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ١٦٨﴾	١٦٨	الأعراف	٢٣٦
١٩	﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾	١٧٩	الأعراف	٢٤٠
٢٠	﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ١٨٢﴾	١٨٢	الأعراف	٢٤٣
٢١	﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾	١١٥	التوبة	٢٣٤
٢٢	﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾	٨٨	يونس	٢٤٦
٢٣	﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ٩١﴾	٩٠	يونس	٢٤٦
٢٤	﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾	٩٨	يونس	٢٣٩
٢٥	﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾	١١١	يوسف	٢٣٢

م	الآيات	رقمها	السورة	الصفحة
٢٦	﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾	٦	الرعد	
٢٧	﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾	١٥	الإسراء	٢٣٤
٢٨	﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾	١٦	الإسراء	٢٤٢
٢٩	﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾	٤٨	الأنبياء	٢٣٣
٣٠	﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾	١٢	الحج	٢٤٠
٣١	﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ﴾	٥٥	المؤمنون	٢٤٤
٣٢	﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا﴾	٥٩	القصص	٢٣٤
٣٣	﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾	٤١	الروم	٢٣٨،٢٣٧
٣٤	﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ﴾	٤٧	الروم	٢٣١
٣٥	﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾	٢١	السجدة	٢٢٧
٣٦	﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ﴾	٨٤	غافر	٢٤٥
٣٧	﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ﴾	٨٥	غافر	٢٤٥
٣٨	﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٤﴾	٤	فاطر	٢٣١
٣٩	﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ٤٣﴾	٤٣	فاطر	٢٣٢

م	الآيات	رقمها	السورة	الصفحة
٤٠	﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾	١٣	فصلت	٢٣٤
٤١	﴿مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾	٤٦	فصلت	٢٣٣
٤٢	﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾	٣٠	الشورى	٢٣٨
٤٣	﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾	٣٥	الأحقاف	٢٣١
٤٤	﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾	٢١	المجادلة	٢٢٩، ٢٣١
٤٥	﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾	٥	الصف	٢٤٠
٤٦	﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾	٨	المنافقون	٢٣١

فهرس الأحاديث والآثار

م	الأحاديث والآثار	القائل	الصفحة
١	«أنا عند حسن ظن عبدي بي».	الرسول ﷺ	٢٤١
٢	«إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي العَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا...».	الرسول ﷺ	٢٤٣
٣	«إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر».	الرسول ﷺ	٢٤٦
٤	«البأساء»: شدة الفقر، والضيق في المعيشة.	ابن مسعود رضي الله عنه	٢٢٤
٥	«الضراء»: الأسقام والعلل العارضة في الأجسام.	ابن مسعود رضي الله عنه	٢٢٤

مجلة تدبر

فهرس المصادر والمراجع

١. «البرهان في تناسب سور القرآن»، الغرناطي، أحمد بن إبراهيم الثقفي (المتوفى: ٧٠٨هـ)، د.ط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، ١٤١٠هـ.

٢. «التحرير والتنوير»، ابن عاشور، محمد بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، ط١، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤هـ.

٣. «تفسير ابن أبي حاتم (تفسير القرآن العظيم)»، ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد الرازي (المتوفى: ٣٢٧هـ)، ط٣، مكتبة نزار مصطفى الباز - السعودية، ١٤١٩هـ.

٤. «تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)»، ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، ط١، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤٢٢هـ.

٥. «تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم)»، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، ط٢، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ.

٦. «تفسير الألوسي (روح المعاني)»، الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (المتوفى: ١٢٧٠هـ)، ط١، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٥هـ.

٧. «تفسير الرازي (مفاتيح الغيب)»، فخر الدين الرازي، محمد بن عمر بن الحسن التيمي، (المتوفى: ٦٠٦هـ)، ط٣، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤٢٠هـ.

٨. «تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)»، السعدي، عبد الرحمن بن ناصر (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ.

٩. «تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل آي القرآن)»، الطبري، محمد بن جرير (المتوفى: ٣١٠هـ)، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ.

١٠. «تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)»، القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن

الأنصاري، (المتوفى: ٦٧١هـ)، ط٢، دار الكتب المصرية - القاهرة، ١٣٨٤هـ.

١١. «السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية»، الدكتور: عبد الكريم زيدان، د.ط، وقد طبع بمؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، عام ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

١٢. «السنن الإلهية في السيرة النبوية»، الدكتور: رشيد كهوس، د.ط، دار السلام، القاهرة، عام ١٤٣٨هـ.

١٣. «السنن الإلهية في القرآن الكريم، ودورها في استشراف المستقبل»، عماد خصاونة - خضر قزق على الرابط: https://andalusiat.com

١٤. «صحيح الإمام البخاري»، البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله الجعفي، ط١، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ.

١٥. «صحيح الإمام مسلم»، مسلم بن الحجاج النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، د.ط، دار إحياء التراث العربي - بيروت، د.ت.

١٦. «صحيح الجامع»، الألباني، محمد ناصر الدين (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، د.ط، المكتب الإسلامي، ١٤٠١هـ.

١٧. «مسند الإمام أحمد»، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، د.ط، مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ.

١٨. «مفهوم السنن الإلهية في القرآن الكريم وعلاقته بمباحث العقيدة»، الأستاذ:خالد محمد أبو الفتوح على الرابط: http://almoslim.net/elmy/290530.

١٩. «مفهوم السنن الربانية في ضوء القرآن الكريم»، الأستاذ الدكتور: رمضان خميس زكي. www.riyadhalelm.com ،

فهرس الموضوعات

ملخص البحث.. ٢١١

المقدمة ٢١٥

أهمية الموضوع.. ٢١٧

الدراسات السابقة ٢١٨

المبحث الأول: مناسبة الآيات لما قبلها، وما بعدها ٢٢١

المبحث الثاني: تفسير الآيات، ويشتمل على ثلاثة مطالب:................. ٢٢٤

المطلب الأول: تفسير المفردات: ٢٢٤

المطلب الثاني: النكت، والأسرار البلاغية، والملح التفسيرية في الآيات: ٢٢٦

المطلب الثالث: المعنى الإجمالي للآيات............................ ٢٢٩

المبحث الثالث: الاعتبار طريق الهداية................................ ٢٣١

المبحث الرابع: الإعذار للعباد قبل العقوبات ٢٣٤

المبحث الخامس: تصريف الأحوال رحمةً من الكبير المتعال............. ٢٣٦

المبحث السادس: أحوال العباد مع البلاء ٢٣٨

المبحث السابع: صلاح الحال الظاهر دون توبةً؛ استدراج ٢٤٢

المبحث الثامن: الهلاك بعد الموعظة والنذارة لا مثنوية له................ ٢٤٥

المبحث التاسع: الله المحمود علىٰ كل حال.......................... ٢٤٧

الخاتمة ٢٤٩

فهرس الآيات ٢٥١

فهرس الأحاديث والآثار.................................... ٢٥٥

فهرس المصادر والمراجع ٢٥٧

فهرس الموضوعات... ٢٥٩

TADABBUR MAGAZINE

Refereed Scientific Biannual Journal specialized in the Arbitration and Publication of the Researches and Studies related to the Areas of Meditating on the Holy Qur'an

Issue No. (10) Year 5 / Rajab 1442 AH, corresponding to February 2021

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩]

TADABBUR MAGAZINE Index:

- **Contemplating the Noble Quran and its Impacts**
  Mohammed El amine Amir
- **Manifestations of the Blessing of Prepared Paths in the Light of the Surah Al Nahl**
  Mahmoud bin Abdel-Jaleel Rozan
- **The Rhetorical Aspects in the Surah Al Fatiha (An Analytical Study)**
  Dr. Mohammad Waseem Khan
- **The Quranic Verses Referring to the Affliction with Distress and Ailment in the Surah Al An'âm: (42-45) Commentary and Spiritual Conclusions**
  Dr. Musad bin Massad Al-Husseini
- **References to the Proprieties and Guidelines Contained in Muqaddimah Ash-Shaatibiyyah**
  Dr. Taariq bin Sa'eed Abu Rub'ah As-Sihli AL-Harbi
- **A report on a scientific thesis entitled "Contemplating the Noble Qur'an from the viewpoint of Imam Ibn Al-Qayyim, may Allah have mercy on him: A Fundamental Study",**
  Researcher Abdul-aziz bin Hussein Al-Wathlan
- **A report on Tadabbur Magazine for five years (from 1438 to 1442/2016-2021)**
- **A report on the First Tafseer (i.e. Quran Exegesis) Forum, held in the State of Kuwait entitled "Mathani", organized by the Ministry of Awqaf and Islamic Affairs**

1658-7642

25 SR